تلامذة الاستعمار .. وتآمرهم على الاسلام

الأستاذ محمد محمد النوري
الرباط – المغرب

— ٣ —

إن تلامذة الاستعمار يقفون اليوم أمام الاسلام كوقوف النصارى و اليهود – قبلا – أمام كتبهم السماوية .. يحرفون الكلم عن مواضعه و يصبغون تعاليمه وفق قوالب الفكر الأوربي ، و يشوهون مبادئه تبعاً لما درسوه عن أساتذتهم – الذين تجندوا خصيصاً للتشويه و التدليس – حتى إن أحد هؤلاء التلاميذ – و هو مسؤول كبير – فسر الحديث الشريف : « الناس شركاء فى ثلاث ، فى الماء ، و الكلأ ، و النار » بأنه حديث يدعو إلى الاشتراكية ، فهل هذا هو الذى قصده رسول الله ؟ حاشا لله أن يكون قصده كذلك .. إنها طريقة سفسطائية ديماغوجية ، يراد بها ذر الرماد فى أعين الشعوب المغلوبة على أمرها ، و صرفها عن دينها ، و تحبيبها « للدين الجديد » الاشتراكية ، و « للنبى الجديد » ماركس و « للاله الجديد » الاقتصاد .

وهذه الطريقة فى المراوغة هى المرحلة الأولى من مراحل تحقير هذا الدين ، و هى طريقة – ابتكرها اليهود فى قلب الحقائق – و يستغلها المسؤولون فى إقناع رعاياهم بتقارب دينهم إلى الاشتراكية ، لها فى صورة الدعوة الصريحة للاشتراكية الماركسية ، ولكن فى صورة تضليل، و التستر وراء عبارة « الاشتراكية الاسلامية » ، و « الاشتراكية

العربية » ، و انتهت هذه المرحلة – مرحلة التضليل – و بدأت المرحلة الثانية – مرحلة تغيير الأفكار – و هى التى تنتهجها مصر حالياً باتخاذها الماركسية مادة أساسية للتدريس فى الثانويات و الجامعات .

أما المرحلة الأخيرة – و فيها يعلن الالحاد صراحة فى دستور الدولة – فهى التى يطالب بها بعض الشباب (١) الملحد المتشبع بآراء ماركس الالحادية ، و قد أخذت جريدة « النهار » اللبنانية على عاتقها – كعشرات من الجرائد و المجلات – فتح المجال أمام كل حاقد أفاك أثيم للتهجم على هذا الدين القويم (٢) ، ففى ٣٠ نوفمبر ١٩٦٩م كتب الملحد « كاتب ياسين » فى هذه الجريدة يقول : « يجب أن تنزع الأقنعة ، فكل ثورة ترفض مكافحة الأديان هى خائنة » ، وهذا الصنف من الملحدين يرى أن ثورة مصر ثورة تقليدية لم تحقق لهم مطالبهم المعهودة عند ماركس ، لأن « نبيهم » هـذا ، يقول : الدين أفيون الشعوب » و يقول كذلك : « إن نقد الدين شرط لكل نقد » ، فهم إذن يريدون تنحية الاسلام نهائياً ، وهذا ماحدا بأحد هؤلاء « الأطفال»

(١) نشير إلى أن القوة الايمانية فى لبنان قد أجبرت السلطة على إحالة الملحد « صادق العظيم » مؤلف كتاب « نقد الفكر الدينى » على القضاء . كما أن المسلمين فى العراق منعوا الملحد « نديم البيطار » من إلقاء محاضرته « من الحقيقة الانسانية إلى الحقيقة الانقلابية » .. و إنها لمواقف مشرفة تشهد بوعى الحركة الاسلامية فى هذه البلاد .

(٢) عن جريدة « الشهاب » اللبنانية ، العدد ٢٠ .

الخبثاء ويدعى « هشام شرابي » إلى القول فى مجلة « مواقف » اللبنانية ، إن ثورة ٢٣ يوليوز فى مصر « لم تخلق حزباً اشتراكيا ، ولم تخلق نظاماً إشتراكيا ، و لم تحرر الجماهير ، بمعنى أن الجماهير فى المدن و الارياف ما زالت بعيدة بوعيها السياسى و الاجتماعى عن الاشتراكية ، ومازالت إسلامية بأيدولوجيتها ، أى أنها غير ثورية » .

هذه هى الهدية التى قدمها لنا الاستعمار .. نظامه .. و أعوانه .. و زبانيته .

فهل بعد هذا نقول إننا مستقلون ؟

إننا لسنا أحراراً .. لأننا رغبنا عن دين حرية الانسان، ورغبنا فى دين عبودية الانسان ، و لأن كرامتنا ، و عزتنا ، و إنسانيتنا تداس – كما كانت فى العهد البائد – بمناهج الغربيين الملوثة بالآراء الهدامة ، الرامية إلى تحقيق مقاصد أنانية لاإنسانية ، والتى تفرض علينا – قهراً – من غير إرادتنا ، أن الاستعمار إن كان قد أفل بجنوده و سلاحه ، فهو لا زال جاثماً علينا بأفكاره ، و معتقداته .. إننا مستعمرون فكرياً و عقائدياً .. سلوكيا و اجتماعياً .. اقتصادياً و سياسياً .. لأننا نسير وفق نفس المخطط الذى رسمه الاستعمار ، وإن كان المسيرون من أبناء جلدتنا ، لأن الاستعمار لم يطلب منا أكثر من أن نعتقد الصلاحية لكل منهج أو فكرة آتية من الغرب .. و هذا هو المطلوب عنده .. و هذا هو الذى طبقه المسئولون عندنا فى دول « العالم الاسلامى » ، و قد صدق سيد الشهداء سيد قطب حين قال واصفاً الوضع السياسى الجاهلى الذى نعيشه : « إن العالم يعيش اليوم كله فى جاهلية من ناحية

الأصل الذى تنبثق منه مقومات الحياة و أنظمتها .. هذه الجاهلية تقوم على أساس الاعتداء على سلطان الله فى الأرض ، و على أخص خصائص الألوهية .. وهى الحاكمية .. إنها تسند الحاكمية إلى البشر، فتجعل بعضهم لبعض أرباباً ، لا فى الصورة البدائية الساذجة التى عرفتها الجاهلية الأولى ، و لكن فى صورة ادعاء حق وضع التصورات و القيم ، و الشرائع ، و الأنظمة ، و الأوضاع بمعزل عن منهج الله للحياة » .

لقد اقتطف الاستعمار بالفعل ثمار آماله من شعوب العالم الاسلامى .. اقتطفها بعد جهد جهيد وفق تكتيك محكم دقيق يلمس شتى مرافق الحياة البشرية .. لقد نجح فى بث ثقافته باسم « الفكر الحر » و وطد قوانينه باسم « الحرية » وركز فوضويته السياسية باسم «الثورة» و أشاع إباحيته الماجنة باسم « الفن » ، ودعم سلوكه اللاأخلاقى باسم « التطور » و ازال لبـاس الحشمة باسم « التحرر » ، و كل أفكاره و تعاليمه الهدامة ، جاءت متسترة وراء هذه الألفاظ البراقة والشعارات المزيفة التى يستغلها فى خدمة دعايته الصهيونية .. بيد أن المستعمر كان داهية فى تخدير العقول من هذه الناحية ، فلكى يتوق فطنة الناس لمكايده الفتاكة ، لجأ إلى أساليبه الديماغوجية ، المألوفة ، فغير جوهر المعانى المثالية بمعانى لا انسانية فى الوقت الذى احتفظ بشعارات براقة جذابة تسكر الغافلين ، و المقلدين الأغبياء .

إن الاستعمار لم يناد « بالفكر الحر » لنعيش بفكر واع متزن نزيه ، و لم يناد « بالحرية » لنحيا فى عزة ، و كرامة ، و عدالة ،

و لم يناد « بالتطور » لنتمثل بيقظة اجتماعية . و سمو فكرى ، و لم يناد « بالفن » لنستعمله فى غايات نبيلة إنسانية ، و لم يناد « بالثورة » لنأخذ ، حقوقنا من أيدى الظالمين .. لم يناد الاستعمار بهذه المفاهيم السامية — و لا يفكر أساساً فى الدعوة إليها — بل كان — ولازال — يحاربها ، و يعتبرها أفكاراً « رجعيــة » و « متخلفة » فكأنما السمو الفكرى — عنده — هو التأخر ، و الحضيض الفكرى هو التقدم ، وفى هذا دليل على إعلانه الحرب على الكيان الانسانى المتطلع إلى السمو لا إلى الحضيض كما هى طبيعته أصلا .

لكن تلامذة الاستعمار ، لايرتضون مثل هذا الكلام ، لأن ثورتهم التى ينادون بها ، هى ثورة على « الحق » لا على « البـاطل » ، و على « إنسانية » الانسـان ، لاعلى « حيوانية » الانسان ، لذا « تصيبهم النوبة ، و تكفهر وجوههم ، و تتشنج عضلاتهم ، و يشيرون باشارات عصبية يطلبون تنحية هذا الكلام » (١) ، لأنهم يرون فى ذلك مساً بكرامة « حضارة » أساتذتهم .. هذه الحضارة التى لا يحسنون أنفسهم فهمها ، إذ يعتبرونها تشمل كل ، سياسة و رأى ، و مذهب ، و فلسفة و سلوك ، و كذا العلوم البحتة (التقنية) ، ذلك أنهم يخلطون بين « التقدم العلمى » من طب ، و صناعة ، و اختراع ، الذى نقدر تقدمه بالفعل ، و بين الايديولوجيات السياسية ، و الاجتماعية ، والاخلاقية ، التى تستند إلى مبــدء « الغاية تبرر الوسيلة » ، و ترجع بالانسان إلى شريعة الغاب ، و يجعلون كل ذلك فى كفة واحدة تحت اسم « التقدم

(١) عن كتاب « الانسان بين المادية والاسلام » ـ للشهيد محمد قطب .

الحضارى » أى أنهم يرون فى لباس « الميني جيب » مثلا ، فعلا حضارياً يقابل اختراع المذياع .. و هلم جراً .. ومن هذه النظرة الخاطئة للحضارة الغربية ، تاهوا فى منعرجات الجاهلية ، ودروبها المظلمة و التمسوا النور من غير ينابعه ، لكن النظرة العلمية المتزنة النزيهة فى أى قصد شخصى ترفض ابتداءاً هـذا الامتزاج اللامنطقى ، و تضع كل شئ فى الموضع المستحق له ، « فالتقدم العلمى » إذا كان فى صالح البشرية نباركه و نبجله ، لكن السياسة النازية و الشيوعية الملحدة ، و الرأسمالية المسرفة ، و الأوضاع الاجتماعية المضطربة ، و الاباحية الخلقية — التى تأباها أصلا طبيعة الانسان — لا يمكننا — منطقياً — أن نمزجها بالتقدم العلمى المزدهر فى أوربا ، فالحضارة الغربيـــة إذا كانت متقدمة ، ففى العلوم البحتة من طب ، و كيمياء ، و صناعة ، لا فى سياستها وأنماطها الاجتماعيـة ، و الاقتصادية ، و السلوكية ، و إلا .. فمتى كانت جنايات : الظلم ، و الاستبداد ، و الاعدام ، والأعمال الشاقة ، وخنق الحريات ، و اضطهاد الآراء — عملا حضارياً ؟ ! .. و متى كانت الفوضوية السياسية ، و الاضطرابات الاجتماعية ، و الانحلال الخلقى ، و اللامبالاة ، و الأبهة ، و الكبرياء ، و النفاق ، و الخدع و إلخ .. عملا حضارياً ؟ !

إن الذى لا يستطيع أن يفرق بين هذه الايديولوجيات الرجعية حقا — لأنها ترجع بنا إلى شريعــة الغاب — و بين التقدم العلمى ، لا يعرف أساساً مفهوم « الحضارة » ، و لله در قول أستـاذنا الشهيد العلامة سيد قطب حين قال : « الاسلام هو الحضارة » (١) .

إن الاسلام هو الحضارة : حضاری فی سموه بالنفس البشرية بروحانيتها و إنسانيتها .. و حضاری فی إعـداد الانسان بأخلاق فی أسمى معانيها .. و حضاری فی كونه يجعل الانسان سيد الكائنات .. و حضاری فی إقامة نظام حكم عادل يتساوى فيه الحاكم و المحكوم أمام القـانون .. و حضاری فی تأسيس مجتمع إنسانی « إذا اشتكى منـه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى » .. وحضاری فی اعتنائه بتنظيم شؤون الفرد ، والجماعة ، والدولة تنظيماً يتفق وطبيعة الانسان . وحضاری فی تحريضه على تعلم العلم و العرفان .. وحضاری فی اهتمامه بالعقول الواعية الناضجة غير الجامدة المتزمتة .. وحضاری فی استحسانه للمخترعات العلمية الهادفة إلى الخير البشری .

و الاسلام كان — و لا زال — هو الحضارة ، والانسان المسلم دائماً يعيش فی حياة حضارية ما تعادلها حياة من أهواء البشر ، إن الحيـاة الحضارية فی الاسلام : لا تعرف قلقاً ، أو يأساً ، أو اضطراباً أو انتحاراً ، أو حقداً ، أو مكراً ، أوخداعاً ، أو نفاقاً ، أو إباحة ، أو تبرجاً ، أو انتقاماً ، أو ظلماً ، أو اضطهاداً ، أو خنقاً . . . إنما هی حياة طهر و عفاف ، و جد و عمل ، و تنسيق و تنظيم ، و حزم و اقدام ، و سمو و استعلاء ، و شهامة و كرامة ، و أنفة و شجاعـة ، و محبة و ألفة ، و عدل و اخاء ، وازدهار و سؤدد ، وفلاح وصلاح ، و جهاد و إصلاح ، و تربية و إحسان ، وتواضع وتراحم ، أما الحياة « الحضارية » فی الجاهلية ، فيكفی للقارئ الكريم أن يطلع عليها من خلال الأوضاع المتدهورة المنهارة فی أوربا و أمريكا ، لأن الشعور

بالواقع أقوى فی الاقناع ، من رنات كلمات قد يحسبها بعض المتشككين عاطفية أكثر منها منطقية ، و هی حياة لا نزيد على أن نقول عنها ، إن واقعها أكد أن أهلها باتوا متنافرين منها ، باحثين عن الدواء الناجع للخرج ، فقد قال « جان سينی » الكاتب العام للمؤسسة الفرنسية لعـلم الاجرام حين سئل عن أسباب تعاطى الشباب للمخدرات فأجاب : « يمكن أن يكون شباب العالم الغربی غير راض بمجتمعه ، و هذا ليس إلا افتراضاً ، ولذلك يجب دراسة هذا الافتراض الذی إذا ما تأكد ، فانه يتطلب منا أن نعمل على إصلاح شبابنا الذی أخذ طريقه الى الانحراف » ، ورغم كل مايوجد فی العالم الجاهلی الأوربی والأمريكی، من انهيار اجتماعی ، واضطراب سياسی ، الذی مله حتى الذين يعيشون هناك ، فاننا نجد تلامذة الاستعمار ، يقبلون على تعلم أنظمة أساتذتهم بشوق و حماس ، و يتكيفون بأوضاعهم المتعفنة النتنة ، و حين نسألهم عن سر هذا الاهتمام ، يقولون باعتزاز : لكی نصبح « تقدميين » و « ثوريين » ، فهل أدرك هؤلاء البلداء و الأغبياء أن « التقدمية » و « الثورية » اللتين يشيدان بهما ، تعين فی المفهوم الحقيقی لأنظمـة أوربا « الرجعيـة المطلقة ، و التخلف المطبق ، و أن « التقدمية » و « الثورية » مصطلحان يفسران مفهوم الاسلام ، نعم الاسلام نظام تقدمی و ثوری .

تقدمی : فی كونه يحفظ للانسان إنسانيته العليا ، و يستعلى به إلى مصاف الأخيـار ، فلا يرجع به إلى أی وضع متعفن مضطرب .

وثوری : فی كونه تحرس كرامة الانسان من الاستغلال ، والعنصرية ،

و الاستبداد ، و بمعنى آخر :

التقدمية : « نعنى بها أن تكون الحركات الاصلاحية أو الدعوات الاجتماعية مسايرة لتطور الحياة و تقدم الحضارة » (١)

والثورية : و نعنى بها ثورة الانسان على أهوائه الخادعة ، وثورته على المجتمع المنحل الذى لا يحترم شرف الانسان ، و ثورته على كل حاكم يسقط من حسابه الاحتكام إلى دستور الله . على أن تكون هذه الثورة بالاقناع ، لا بالصراع الدموى « أدع إلى سبيل ربك بالحكمة و الموعظة الحسنة و جادلهم بالتى هى أحسن » .

« يتبع »

(١) التعريف للمرحوم مصطفى السباعى — عن جريدة الرائد الهندية .